الفصل الرابع

تسامح وزيد

● **درجات التسامح وحظ المسلمين منها :**

إن التسامح الديني والفكري له درجات ومراتب .

فالدرجة الدنيا من التسامح : أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته ، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك ، بحيث إذا أبى حكمت عليه بالموت أو العذاب أو المصادرة أو النفي أو غير ذلك من ألوان العقوبات والاضطهادات التي يقوم بها المتعصبون ضد مخالفيهم في عقائدهم . . فتدع له حرية الاعتقاد ، ولكن لا تمكنه من ممارسة واجباته الدينية التي تفرضها عليه عقيدته ، والامتناع مما يعتقد تحريمه عليه .

والدرجة الوسطى من التسامح : أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب ، ثم لا تُضيِّق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حُرمته . فإذا كان اليهودي يعتقد حُرمة العمل يوم السبت ، فلا يجوز أن يُكلَّف بعمل في هذا اليوم ؛ لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه[1] .

وإذا كان النصراني يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد ، فلا يجوز أن يُمنع من ذلك في هذا اليوم .

والدرجة التي تعلو هذه في التسامح : ألا نُضَيِّق على المخالفين فيما يعتقدون حِله في دينهم أو مذهبهم . وإن كنت تعتقد أنه حرام في دينك أو مذهبك .

وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة ، إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح .

---

(١) في غاية المنتهى وشرحه ، من كتب الحنابلة : « ويحرم إحضار يهودي في سبته ، وتحريمه باق بالنسبة إليه ، فيستثنى شرعًا من عمل في إجارة ، لحديث النسائي والترمذي وصححه : « وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت » اهـ (٢/٦٠٤).

فقد التزموا كل ما يعتقده غير المسلم أنه حلال في دينه . ووسَّعوا له في ذلك . ولم يُضيِّقوا عليه بالمنع والتحريم . وكان يمكنهم أن يُحرِّموا ذلك . مراعاة لشريعة الدولة ودينها ولا يُتهموا بكثير من التعصب أو قليل ، ذلك لأن الشيء الذي يحله دين من الأديان ليس فرضًا على أتباعه أن يفعلوه ، فإذا كان دين المجوسي يبيح له الزواج من أمه أو أخته فيمكنه أن يتزوج من غيرهما ولا حَرَج . وإذا كان دين النصراني يحل له أكل الخنزير ، فإنه يستطيع أن يعيش عمره دون أن يأكل الخنزير ، وفي لحوم البقر والغنم والطير متسع له .

ومثل ذلك الخمر ، فإذا كانت بعض الكتب المسيحية قد جاءت بإباحتها أو إباحة القليل منها لإصلاح المعدة ، فليس من فرائض المسيحية أن يشرب المسيحي الخمر .

فلو أن الإسلام قال للذميين : دعوا زواج المحارم ، وشُرب الخمر ، وأكل الخنازير ، مراعاة لشعور إخوانكم المسلمين ، لم يكن عليهم في ذلك أي حَرَج ديني ، لأنهم إذا تركوا هذه الأشياء لم يرتكبوا في دينهم منكرًا ، ولا أخلُّوا بواجب مقدس .

ومع هذا لم يقل الإسلام ذلك ، ولم يشأ أن يُضيِّق على غير المسلمين في أمر يعتقدون حِله ، وقال للمسلمين : اتركوهم وما يدينون .

• روح التسامح عند المسلمين :

على أن هناك شيئًا آخر لا يدخل في نطاق الحقوق التي تنظمها القوانين ، ويلزم بها القضاء ، وتشرف على تنفيذها الحكومات .

ذلك هو «روح السماحة» التي تبدو في حُسن المعاشرة ، ولُطف المعاملة ، ورعاية الجوار ، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان . وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية ، ولا يغني فيها قانون ولا قضاء . وهذه الروح لا تكاد توجد في غير المجتمع الإسلامي .

تتجلى هذه السماحة في مثل قول القرآن في شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك : ﴿ **وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ (لقمان: ١٥).

وفي ترغيب القرآن في البر والإقساط إلى المخالفين الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨).

وفي قول القرآن يصف الأبرار من عباد الله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان:٨).

ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين .

وفي قول القرآن يجيب عن شُبهة بعض المسلمين في مشروعية الإنفاق على ذويهم وجيرانهم من المشركين المصرّين : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢٧٢).

وقد روى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ومدوِّن مذهبه : أن النبي ﷺ بعث إلى أهل مكة مالاً لما قحطوا ليُوزَّع على فقرائهم[١] .

هذا على الرغم مما قاساه من أهل مكة من العنت والأذى هو وأصحابه .

وروى أحمد والشيخان ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت أمي وهي مشركة ، في عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيتُ النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صِلي أمك »[٢] .

وفي قول القرآن يبيِّن أدب المجادلة مع المخالفين : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ ﴾ (العنكبوت:٤٦).

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الرسول ﷺ لأهل الكتاب ، يهودًا كانوا أو نصارى ، فقد كان يزورهم ويكرمهم ، ويُحسن إليهم ، ويعود مرضاهم ، ويأخذ منهم ويعطيهم .

---

(١) شرح السير الكبير (١/١٤٤).

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الجزية (٣١٨٣) ، ومسلم في الزكاة (١٠٠٣) ، كما رواه أحمد (٢٦٩١٥).

ذكر ابن إسحق في السيرة : أن وفد نجران ـ وهم من النصارى ـ لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة ، دخلوا عليه مسجده بعد العصر، فكانت صلاتهم ، فقاموا يصلون في مسجده ، فأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوهم » فاستقبلوا المشرق ، فصلُّوا صلاتهم[١] .

وعقب المجتهد ابن القيم على هذه القصة في « الهدي النبوي » فذكر مما فيها من الفقه : « جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين . . وتمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين ، وفي مساجدهم أيضًا ، إذا كان ذلك عارضًا ، ولا يُمكَّنون من اعتياد ذلك »[٢] .

وروى أبو عبيد في « الأموال » ، عن سعيد بن المسيب : أن رسول الله ﷺ تصدَّق بصدقة على أهل بيت من اليهود ، فهي تُجرَى عليهم[٣] .

وروى البخاري ، عن أنس ، أن النبي ﷺ عاد يهوديًّا ، وعرض عليه الإسلام فأسلم ، فخرج وهو يقول : « الحمد لله الذي أنقذه بي من النار[٤] » .

وروى البخاري أيضًا : « أن النبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله[٥] » وقد كان في وسعه أن يستقرض من أصحابه ، وما كانوا ليضنوا عليه بشيء ، ولكنه أراد أن يُعلِّم أمته .

وقبل النبي ﷺ الهدايا من غير المسلمين ، واستعان في سلمه وحربه بغير المسلمين ، حيث ضمن ولاءهم له ، ولم يخش منهم شرًّا ولا كيدًا .

ومرت عليه جنازة فقام ﷺ لها واقفًا ، فقيل له : إنها جنازة يهودي ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : « أليست نفسًا »؟ ![٦]

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الصحابة والتابعين لغير المسلمين .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٥٧٤).

(٢) زاد المعاد لابن القيم (٣/٥٥٧، ٥٥٨) ط الرسالة ، السابعة والعشرون .

(٣) الأموال ص ٦١٣ .

(٤) رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٦).

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد (٢٩١٦) ، ومسلم في المساقاة (١٦٠٣) ، عن عائشة.

(٦) متفق عليه : رواه البخاري (١٣١٢) ، ومسلم (٩٦١) كلاهما في الجنائز ، عن قيس ابن سعد ، وسهل بن حُنيف .

فعمر يأمر بصرف معاش دائم ليهودي وعياله من بيت مال المسلمين ، ثم يقول : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ (التوبة:٦٠) وهذا من مساكين أهل الكتاب[١].

ويمر في رحلته إلى الشام بقوم مجذومين من النصارى فيأمر بمساعدة اجتماعية لهم من بيت مال المسلمين[٢].

وأصيب عمر بضربة رجل من أهل الذمة ـ أبي لؤلؤة المجوسي ـ فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول : «أوصى الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا ، أن يوفي بعهدهم ، وأن يقاتل مَن ورائهم . وألا يكلفهم فوق طاقتهم»[٣].

وعبد الله بن عَمْرو يوصي غلامه أن يعطي جاره اليهودي من الأضحية ، ويكرر الوصية مرة بعد مرة ، حتى دهش الغلام ، وسأله عن سر هذه العناية بجار يهودي؟ قال ابن عَمْرو : إن النبي ﷺ قال : «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيوَرِّثه»[٤].

وماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية ، فشيعها أصحاب رسول الله ﷺ[٥].

وكان بعض أجلاء التابعين يعطون نصيبًا من صدقة الفطر لرهبان النصارى ولا يرون في ذلك حَرَجًا . بل ذهب بعضهم ـ كعِكرمة وابن سيرين والزهري ـ إلى جواز إعطائهم من الزكاة نفسها[٦].

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٢٦ ، انظر كتابنا «فقه الزكاة» (٢/٧١٥ ، ٨٩٤).

(٢) فتوح البلدان للبلاذري صـ١٣١.

(٣) رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٢).

(٤) القصة رواها أبو داود في الأدب (٥١٥٢) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣) ، وقال حسن غريب ، والمرفوع منه متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠١٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥).

(٥) رواه عبد الرزاق في أهل الكتاب (٩٩٢٦) ، عن الشعبي .

(٦) المجموع للنووي (٦/٢٢٨).

obeikandi.com

وروى ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد : «أنه سُئِل عن الصدقة فيمن توضع ؟ فقال : في أهل مِلَّتكم من المسلمين ، وأهل ذمتهم ...»[1].

وذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك» قال : «حدث الدارقطني أن القاضي إسماعيل بن إسحاق[2] دخل عليه الوزير عبدون بن صاعد النصراني وزير الخليفة المعتضد بالله العباسي ، فقام له القاضي ورحب به . فرأى إنكار الشهود لذلك ، فلما خرج الوزير قال القاضي إسماعيل : قد علمتُ إنكاركم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ (الممتحنة:٨) ، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين المعتضد . . . . وهذا من البر»[3] .

وتتجلى هذه السماحة بعد ذلك في مواقف كثير من الأئمة والفقهاء ، في الدفاع عن أهل الذمة ، واعتبار أعراضهم وحرماتهم كحرمات المسلمين ، وقد ذكرنا مثلاً لذلك موقف الإمام الأوزاعي ، والإمام ابن تيمية .

ونكتفي هنا بكلمات نيِّرة للفقيه الأصولي المحقق شهاب الدين القرافي شارحًا بها معنى البر الذي أمر الله به المسلمين في شأنهم . فذكر من ذلك : الرفق بضعيفهم ، وسد خُلَّة فقيرهم ، وإطعام جائعهم ، وكساء عاريهم ، ولين القول لهم ـ على سبيل اللطف لهم والرحمة ، لا على سبيل الخوف والذلة ـ واحتمال إذايتهم في الجوار ـ مع القدرة على إزالته ـ لطفًا منا بهم ، لا خوفًا ولا طمعًا ، والدعاء لهم بالهداية ، وأن يجعلوا من أهل السعادة ، ونصيحتهم في جميع أمورهم ، في دينهم ودنياهم ، وحفظ غيبتهم ، إذا تعرَّض أحد لأذيتهم ، وصون أموالهم وعيالهم

---

(١) ذكر ذلك ابن حزم في المحلى (١١٧/٥) .

(٢) من أعلام المالكية ، وقاضي بغداد توفي سنة ٢٨٢هـ ـ انظر ترجمته في «ترتيب المدارك» (١٦٦/٣ - ١٨١) ط . دار الحياة ببيروت ـ تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود .

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٧٢/٧).

وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم ، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم . . . إلخ[1] .

● الركائز الفكرية لتسامح المسلمين :

وأساس النظرة المتسامحة التي تسود المسلمين في معاملة مخالفيهم في الدين يرجع إلى الركائز والدعائم ، أو الأفكار والحقائق الناصعة التي غرسها الإسلام في عقول المسلمين وقلوبهم ، وأهمها . هذه الركائز :

إيمان كل مسلم بكرامة الإنسان :

١- الركيزة الأولى:اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان ، أيًّا كان دينه أو جنسه أو لونه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء:٧٠) ، وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية .

ومن الأمثلة العملية ما ذكرناه من قبل ، وهو ما رواه البخاري ومسلم ، عن قيس بن سعد ، وسهل بن حُنيف رضي الله عنهما . أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفًا ، فقيل له : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودي ؛ فقال : « أليست نفسًا »؟![2]. بلى ، ولكل نفس في الإسلام حُرمة ومكان ، فما أروع الموقف ، وما أروع التفسير والتعليل !

اختلاف الناس واقع بمشيئة الله :

٢- والركيزة الثانية : اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى ، الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع : ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (يونس:١٠٨). ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود:١١٨).

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب ، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة ، علم الناس ذلك أو جهلوه ، ولهذا لا يفكر المسلم يومًا أن يجبر

---

(١) الفروق (٣/١٥) .

(٢) سبق تخريجه صـ ٤٦ .

الناس ليصيروا كلهم مسلمين ، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩).

حساب المختلفين إلى الله يوم القيامة :

٣- الركيزة الثالثة : إن المسلم ليس مكلَّفًا أن يحاسب الكافرين على كفرهم ، أو يعاقب الضالين على ضلالهم ، فهذا ليس إليه ، وليس موعده هذه الدنيا ، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب ، وجزاؤهم متروك إليه في يوم الدين ، قال تعالى : ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (الحج:٦٨،٦٩). وقال يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الشورى:١٥).

وبهذا يستريح ضمير المسلم ، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر ، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه ، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد .

العدل مأمور به للناس جميعا :

٤- الركيزة الرابعة : إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل ، ويحب القسط ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولو مع المشركين ، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين ، ولو كان الظلم من مسلم لكافر . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨).

وقال ﷺ : « دعوة المظلوم ـ وإن كان كافراً ـ ليس دونها حجاب »[(١)].

---

(١) رواه أحمد (١٢٥٤٩) وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٢٣٥) : رواه أحمد ، وأبو عبد الله الأسدي لم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

ونضيف إلى هذه الركائز الأربع ركائز أخرى ، نقتبسها من كتابنا (فقه الجهاد) من فصل (إشاعة ثقافة التسامح مع الآخرين) :

اعتبار البشرية كلها أسرة واحدة :

٥- والركيزة الخامسة : أن الإسلام ينظر إلى البشرية كلها ـ أيا كانت أجناسها وألوانها ولغاتها وأقاليمها وطبقاتها ـ بوصفها أسرة واحدة ، تنتمي من جهة الخلق إلى رب واحد ، ومن جهة النسب إلى أب واحد ، وهذا ما نادى به القرآن الناس ؛ كل الناس ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١) ، وما أجدر كلمة ﴿ ٱلْأَرْحَامَ ﴾ في هذا السياق أن تفسر بما يشمل الأرحام الإنسانية كلها . كما قال الشاعر المسلم :

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين أقاربي

وقد أعلن رسول الإسلام هذه الحقيقة ـ وحدة الأسرة البشرية ـ أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع ، قائلا :« يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى . إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[١] . وهو تقرير وتأكيد لما جاء في الآية الكريمة من سورة الحجرات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣) . فالمراد بالذكر والأنثى في الآية : آدم وحواء ، وهما أبوا البشر . ويستأنس لهذا بما جاء في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن زيد ابن أرقم وإن كان في إسناده ضعف : أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة : « اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ؛ أنا شهيد أنك وحدك لا شريك لك ، اللهم ربنا ورب

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) ، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٥٨٦/٣) ، عن من سمع النبي ﷺ .

obeikandl.com

كل شيء ومليكه ؛ أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ؛ أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»[1].

وقد أثبت القرآن أن هناك أخوة دينية بين أهل الإيمان أو أهل الدين الواحد ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠) ، ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (آل عمران:١٠٣). كما أثبت أن هناك أخوة قومية ووطنية ، كالتي أثبتها بين الرسل وأقوامهم المكذبين لهم ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (الأعراف:٦٥) ، ﴿ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ (النمل:٤٥). والأخوة هنا قطعا ليست دينية ، وإنما هي أخوة قومية ، ولهذا كان يبدأ كل رسول من هؤلاء نداءه بقوله : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف:٥٩) . ولكن شعيبًا عليه السلام حين أرسله الله تعالى إلى أصحاب الأيكة لم يجعله أخا لهم ، ولذا لم يناديهم ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء:١٧٦،١٧٧) . ولم يقل ما قاله الرسل من قبله ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء:١٠٥،١٠٦) ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء:١٢٣،١٢٤)، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء:١٤١،١٤٢) . فلا غرو أن يكون هناك أخوة إنسانية آدمية بحكم الانتساب إلى آدم أبي البشر ، ومن هنا نودوا جميعا بقوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ في القرآن خمس مرات .

الرحمة بخلق الله جميعًا :

٦- والركيزة السادسة من عناصر هذه الثقافة : إقرار هذا المبدأ وإشاعته في الناس ، وهو وجوب الرحمة بخلق الله جميعا ، مسلمهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، إنسانهم وحيوانهم ، تخلقا بأخلاق الله تعالى الذي سمَّى نفسه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ و ﴿ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ومن (وسعت رحمته كل شيء) ، ومن

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٩٢٩٣) ، وقال محققوه : إسناده ضعيف ، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٨) ، والبيهقي في الشعب (٤٣٣/١) ، عن زيد بن أرقم .

سبقت رحمته غضبه ، وهو يرزق من آمن ومن كفر ، وينزل مطره ، ويُطلع شمسه عليهم جميعا ، ولا يحجز عنهم فضله وإحسانه .

وقد أعلن في كتابه أنه أرسل رسوله محمدا ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ للعالم كله ، وليس للمسلمين وحدهم ، بل جاء بصيغة الحصر فقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(الأنبياء:١٠٧) ، فهذه الرسالة رحمة عامة للبشر ، ولكل المخلوقات ، حتى الحيوان والطير والماء والأرض والهواء ، أوما يسمى (البيئة) .

ووصف الرسول ﷺ نفسه ، فقال : « إنما أنا رحمة مهداة »[١] ، وقال : الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[٢] ، وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي »[٣] .

كما جعل القرآن (القسوة) من شر الرذائل التي لا يوصف بها المؤمنون ، بل ذم بني إسرائيل لقسوتهم ، فقال : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾(البقرة:٧٤) ، وقال في مقام آخر : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾(المائدة:١٣) ، فجعل القسوة عقوبة إلهية لهم على تجاوزهم ونقضهم العهود والمواثيق بينهم وبين الله تعالى ، أو بينهم وبين العباد .

وأما وصف الصحابة ، بقوله : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾(الفتح:٢٩) ، فالكفار في هذا المقام هم المعتدون المحاربون للمسلمين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويفتنون المؤمنين في دينهم ، بالاضطهاد والتعذيب ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(البقرة:٢٥٤) .

---

(١) رواه الدارمي في المقدمة(١٥) ، والحاكم في الإيمان(١/٣٥) وقال: حديث صحيح على شرطهما ، فقد احتجا جميعا بمالك بن سعير ، والتفرد من الثقات مقبول ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في الأوسط(٢٩٨١) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٠) عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد (٦٤٩٤) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٤١) والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) ، وقال حديث حسن صحيح ، والبيهقي في الشعب (١١٠٤٨) وصححه الألباني في الصحيحة(٩٢٥)عن ابن عمر .

(٣) رواه أحمد (٨٠٠١) وأبو داود في الأدب (٤٩٤٢) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٣) ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦١) عن أبي هريرة .

ادفع بالتي هي أحسن :

٧- والركيزة السابعة من عناصر هذه الثقافة : أن الإسلام يربي أبناءه تربية خلقية معروفة ، قوامها أن يكون المسلم ينبوع خير وسلام لكل من حوله ،وما حوله . فإسلامه مصدر سلام للناس ، فلا ينالهم أذى من لسانه أو يده ، وإيمانه مصدر أمان لهم ، فلا يخافون على دمائهم أو أموالهم ، كما جاء في الحديث : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم »[1] . بل المسلم سلام للبيئة من حوله .

بل ربى الإسلام المسلم أن يدفع سيئة من أساء إليه بالحسنة ، وإن جاز له أن يدفع السيئة بمثلها ، وهو مقام العدل ، رغّبه بأن يدفعها بالحسنة ، أو بالتي هي أحسن ، وهذا مقام الإحسان والفضل ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (الشورى: ٤٠) ، وقال : ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ (المؤمنون: ٩٦)، وقال : ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥)

العداوات بين الناس ليست أمرا دائما :

٨- والركيزة الثامنة ، التي قررها الإسلام ، وعلّمها للمسلمين ، وغرسها في عقولهم وضمائرهم : أن الناس قد يعادي بعضهم بعضا ، لأسباب مختلفة ، دينية أو دنيوية ، ولكن هذه العداوات ـ على حق كانت أو على باطل ـ لا تدوم أبد الدهر ، فالقلوب تتغير ، والأحوال تتبدل ، وعدو الأمس قد يصبح صديق اليوم ، وبعيد اليوم قد يصبح قريب الغد ، وهذه قاعدة مهمة في علاقات الناس بعضهم ببعض ، فلا ينبغي أن يسرفوا في العداوة ، حتى لا يبقوا للصلح موضعا ، وهذا

---

(١) رواه أحمد (٨٩٣١) وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، والنسائي في الكبرى في الإيمان (١١٧٢٦) عن أبي هريرة .

ما نبه إليه القرآن بوضوح بعد نهيه عن موالاة أعداء الله وأعداء المسلمين في أول سورة الممتحنة، وضرب مثلا بصلابة إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة:٤) . بعد هذا قال تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الممتحنة:٧) .

فهذا الرجاء من الله سبحانه الذي ذكره بكلمة (عسى) يملأ القلوب أملا بتغيير القلوب من العداوة والبغضاء إلى المودة والمحبة، والله قدير على تغيير القلوب، فهو الذي يقلبها كيف يشاء، والله غفور لما مضى من الأحقاد والضغائن، رحيم بعباده الذين تصفو قلوبهم، ولا عجب أن اشتهر بين المسلمين قولهم: وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما[1].

الدعوة إلى الحوار بالتي هي أحسن:

٩- والركيزة التاسعة للتسامح الإسلامي هي: الدعوة إلى حوار المخالفين بالحسنى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥)، فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ـ غالبا ـ

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة(١٩٩٧) عن أبي هريرة، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا ورواه الحسن بن أبي جعفر، وهو حديث ضعيف أيضا بإسناده له عن النبي ﷺ، والصحيح عن علي موقوف، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٠٢٦) وقال محققه (محمد عوامة): والواقع أن إسناد المرفوع رجاله ثقات من رجال مسلم، كما في تخريج الإحياء(١٨٥/٢)، لكن أعلّه النقاد وصححوا وقفه، ورواه البخاري في الأدب المفرد عن علي مرفوعا (١٣٢١)، والبيهقي في الشعب (٦٥٩٣). وذكره الألباني في صحيح الأدب المفرد(٩٩٢)، وفي صحيح الترمذي (١٦٢٥).

مع الموافقين ، والجدال بالتي هي أحسن ـ غالبا ـ مع المخالفين . فالمسلمون مأمورون من ربهم أن يجادلوا مخالفهم ، بالطريقة التي هي أحسن الطرق ، أمثلها وأقرب إلى القبول من المخالف .

والجدال بالتي هي أحسن ، هو : الحوار الذي ندعو إليه مع المخالفين لنا ، وهو الذي لا يسعى إلى إيغار الصدور ، أو المباعدة بين القلوب ، وإثارة ما يشعل الفتنة ، أو يورث الضغينة ، بل يعمل على تقريب القلوب بعضها من بعض ، كما قال تعالى في مجادلة أهل الكتاب : ﴿ **وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ** ﴾ (العنكبوت:٤٦) . فالآية تركز على الجوامع المشتركة التي يؤمن بها الفريقان ، لا على نقاط التمايز والاختلاف ، وهذا من أصول الحوار بالحسنى . وبهذا يرى الإسلام ضرورة الحوار بين المتخالفين ، ولا يرى حتمية الصراع بينهم ، كما ادعى الكاتب الاستراتيجي الأمريكي (صمويل هانتجتون) .

وقد بدأ الحوار الإسلامي المسيحي منذ حوالي أربعين سنة ، ولم يزل مستمرا إلى عهد قريب ، وقد شاركت في أكثر من مؤتمر لهذا الحوار ، منها : مؤتمر القمة الإسلامية المسيحية في روما (أكتوبر ٢٠٠١) التي دعت إليها جمعية (سانت جديو) الإيطالية وقد شارك فيه كبار الكرادلة ، وكبار علماء المسلمين . والقمة الإسلامية المسيحية في برشلونة (٢٠٠٣م) ومؤتمر الحوار الإسلامي المسيحي مع الكنائس الشرقية خاصة ، في القاهرة . ومؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي بالدوحة . . ولكن بعد كلمات بابا الفاتيكان (بندكت السادس عشر) في محاضرته بألمانيا (١٢سبتمبر ٢٠٠٦) التي أساء إلى الإسلام ونبيه وعقيدته وشريعته وحضارته : جمد الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الحوار بيننا وبين الفاتيكان ؛ حتى يظهر موقف آخر يمحو الأذى السابق .

* * *